المحاضرة 02:

حضارة مصر الفرعونية

01ـ الموقع الجغرافي:

تقع مصر في الشمال الشرقي من قارة افريقيا، وأبرز ما يميز مصر في جغرافيتها وتأريخها نهر النيل مصدر الحياة والخصب. فلولاه لأصبحت مصر صحراء جرداء. تشغل مصر الوادي الضيق للنيل المحاط بالجبال من الغرب والشرق، يتراوح عرض الوادي بين 15 ـ 25 كم تفصله الجبال الغربية عن الصحراء الليبية، خلف الجبال الشرقية يمتد شاطئ البحر الأحمر، في الجنوب تقطع مجرى النيل سيول تجعل الإبحار صعبا وتعزل مصر عن بلدان الجنوب. وفي الشمال يعرض الوادي وينتهي بدلتا النيل. في الماضي كانت المنطقة غير مزروعة، مستنقعية. الوضع الجغرافي لوادي النيل يوفر له مكاسب ضخمة فالجبال المحيطة به غنية بحجارة البناء: غرانيت، بازلت، كلكير. والجبال الشرقية وخصوصا جبال النوبة تحوي مدخرات من الذهب. تنمو في الوادي أشجار الأثل، والنخيل تستخدم جذورها في بناء المراكب النهرية. يصب النيل في البحر الأبيض المتوسط. الشريان الرئيس في تجارة العصور القديمة.

02ـ عصور الحضارة الفرعونية:

ساعدت الوثائق الكتوبة التي خلفها المصريون القدماء في ضبط أدوار التأريخ في حضارة وادي النيل منذ بداية الألف الثالثة ق.م فما بعد أي منذ بداية العهد التأريخي الذي يبدأ بظهور المملكة المصرية التي وحّدها "مينا" وهو الذي يُعزى إليه تأسيس أول سلالة مصرية حكمت مصر.

وقسم المؤخون فراعنة مصر، والسلالات التي حكمت منذ أول سلالة إلى نهاية التأريخ المصري إلى 31 سلالة. ولكن لما كانت نهاية كل سلالة لا تتميز على الدوام بتغييرات بارزة فقد ارتأى الباحثون تقسيم تأريخ مصر القديم إلى ثلاثة عصور كبرى هي: عصر المملكة القديمة ـ عصر المملكة الوسطى ـ و عصر المملكة الحديثة (ويشمل هذا العصر الامبراطورية المصرية).

أ ـ المملكة القديمة:

ويشمل هذا العصر مرحلتين:

1ـ بداية السلالات (3100 ـ 2780 ق.م) السلالة الأولى، والسلالة الثانية.

2ـ عصر الأهرام (2780 ـ 2270 ق.م) السلالات من الثالثة إلى السادسة.

كان سكان مصر في القديم عبارة عن قبائل متفرقة، إلى أن استقرت على ضفاف النيل، وتجمّعت هذه القبائل في شكل إمارات، ودويلات مدن كثيرة منتشرة في كل من مصر العليا و مصر السفلى، وكان عدد هذه الوحدات و الأقاليم حوالي 42 عندما تمّ توحيدها. 22 في مصر العليا و 20 في مصر السّفلى. وكان لكلّ ولاية ديانتها الخاصة، و إلهها، أو آلهتها الخاصة. ورمزها الديني و السياسي. وكان بين تلك الدويلات حروبا إلى أن تقلّص عددها بالفتح، و الضمّ. فصارت قُبَيل السلالة الأولى مملكتين منفصلتين، مملكة جنوبية، ومملكة شمالية. وكان الاسم المصري القديم للعاصمة الجنوبية " نخين" أو " نخيت" . وعاصمة مملكة الشمال " منفيس". وكانت مملكة الشمال أكثر تقدّما في الحضارة من مملكة الجنوب. وكان رمزها " الحيّة". أما رمز مملكة الجنوب فكان " النحلة" . ثم ظهر ملك قوي من مملكة الجنوب هو الملك "مينا" نجح في توحيد المملكتين في مملكة متّحدة عاصمتها "منفيس" سنة 3200 ق.م لقّب ملوكها أنفسهم ملك " مصر العليا و السّفلى". وكان ظهور المملكة المتّحدة

بداية العصر التاريخي لمصر. وقيام الأسر الحاكمة طيلة قرون عديدة. ويبلغ عددها حوالي 30 أسرة.

و أدخل " مينا" في البلاد وسائل النّعيم، والحياة المترفة، إلاّ أنّ القوة الحقيقية لمصر في هذا العصر ظهرت مع الأسرة الرابعة، حيث ظهرت ملامح الازدهار، واستقرّ الاتّحاد في المملكة. وكانت الإدارة آنذاك مركزية، والسلطة فيها مطلقة للفرعون، الذي يساعده عدد كبير من الموظفين. و على الرغم من أنّ الدويلات، و الأقاليم قد توحّدت إلاّ أنّ ملوك السلالة الأولى، و الثانية عيّنوا حكّاما يديرونها من قِبلهم. وظلّ الحال كذلك في عهد السلالات التّالية، إلاّ أنّ هؤلاء الحكّام أصبحوا يتناقلون الحكم في الأقاليم بالوراثة. ومع مرور الوقت صاروا يشكّلون تهديدا للمملكة القديمة، خاصة في فترة ضعفها، مما سمح لهؤلاء الحكام بالاستقلال بأقاليمهم في نهاية السلالة السادسة، أي نهاية عصر الأهرام. وقد سُمّي هذا العصر بعصر الأهرام لأنّ الأهرام الضخمة المعروفة التي اشتهرت بها مصر لم تبدأ إلاّ في عهد السلالة الرابعة، و أشهر فراعنة مصر القديمة هم الملك مينا، و الفراعنة "خوفو" و "خفرع" و "منقرع".

وممّا يقال في عهد المملكة القديمة بوجه عام، وعصر الأهرام بوجه خاص أنّه كان عهد ازدهار الحضارة المصرية، وعهد نضجها. كما أنه كان عهد توطيد الوحدة السياسية و السلطان المركزي، وسلطة الملوك المطلقة، و أساس الحكم كان يقوم على حكم الملك الإله. وكان أساس الفكرة من بناء الهرم "ألوهية الملك" و خلوده.

ب ـ المملكة الوسطى: (2100 ـ 1788 ق.م)

ويشمل السلالتين الحادية عشرة، و الثانية عشرة. دام عصر الأهرام ما يقارب خمسة قرون. كانت المملكة المصرية خلاله موحّدة تدور إدارتها على سلطة الفراعنة المركزية، يساعدهم موظفو البلاط، وكانت طبقة النّبلاء، و الأمراء كذلك تقوم عليها إدارة الدولة، ولكنّ النّبلاء

استقلّوا في أواخر عصر الأهرام فانتقلت المملكة من السلطة المركزية إلى حكومة لامركزية، استقلّ فيها حكّام المقاطعات من النّبلاء بأقاليمهم، فعاد الحال في مصر إلى ما كان عليه قبل عصر الأهرام، حتى أنّه لم تنته السلالة السادسة إلاّ و البلاد في فوضى ضاربة، فحلّ عهد مظلم دام 170 عاما من السلالة السابعة إلى العاشرة، تجزّأت فيه البلاد إلى أقاليم و دويلات يحكم فيها أمراء مستقلّون، ولم يكن للملوك من الحكم سوى الاسم. وقد كان هؤلاء النبلاء في حروب مستمرة من أجل بسط سلطان مدنهم، واستطاعت مدينة "طيبة" أن تُخضع في آخر الأمر معظم المدن، وتبسط سلطانها على سائر القطر المصري، وظهر فيها ملوك حكموا جميع البلاد، وضموها في مملكة واحدة، فبدأ عهد المملكة الوسطى (2100 ق.م) وهي المملكة الموحدة القوية بعد المملكة القديمة. وازدهرت في هذا العهد سلالتان هما الحادية عشرة، والثانية عشرة، وقد خلّفت السلالة الثانية عشرة آثارا كثيرة ولا سيما في المعابد الشهيرة للإله "أمون" في "الكرنك"، وللإله "رع" في مدينة الشمس، وكان عهدها عهد سلم ورخاء، واتحاد في القطر المصري. وقد عمل ملوكها على تحديد حدود الولايات، وتحديد سلطات النبلاء. ووضع أسس الإدارة والحكومة. وممن اشتهر من ملوك هذه السلالة "أمينمحيت" و"سنوسرت" لكن وفي عهد الأسرة الثالثة عشرة تعرضت البلاد إلى غزو الهكسوس وهم قوم رعاة جاءوا من آسيا. وبذل المصريون مجهودات متواصلة لطردهم من بلادهم حتى تم تحرير مصر منهم على يد القائد المشهور "أحموسة" الذي كون سلالة جديدة هي السلالة الثامنة عشرة.

ج ـ المملكة الحديثة: (1573 ـ 1085 ق.م)

ويشمل السلالة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين. لقد خلقت حرب التحرير التي شنها المصريون على الهكسوس روحا قوية، فلم يكتف ملوك السلالة الثامنة بطرد الأجانب من مصر بل لاحقوا فلولهم إلى سوريا، وحاربوهم هناك. فاستطاع أحد ملوك السلالة الثامنة عشرة وهو "طوطمس الثالث" أن يقضي على قوة الهكسوس نهائيا في بلاد الشام. وبدأ عهد

جديد من العصور المهمة في تأريخ مصر من حيث القوة، والبأس، والثروة وقد دامت الامبراطورية خمسة قرون من قيام الملك أحموسة الأول إلى مجيء الفرعون "حاريحور". ولكن دبّ الانحلال، والضعف في الامبراطورية منذ نهاية السلالة التاسعة عشرة التي أسسها "رعمسيس الأول"، وقضى ابنه "سيتي" معظم حُكمه في الحروب. وانحطّت مصر في أواخر السلالة التاسعة عشرة، ولكن "رعمسيس الثالث" مؤسس السلالة العشرين أعاد إلى مصر قوتها نوعا ما. وسرعان ما انهارت مصر بعد موته، وانتهى العهد الجديد بعودة الانقسام في المملكة المصرية. ومن ثم تعرضت للاحتلال الآشوري في القرن السابع ق.م. والاحتلال الفارسي، والبطالمة، ثم الاحتلال الروماني من سنة 30 ق.م إلى سنة 640 م حيث تمكن عمرو بن العاص من فتح مصر سنة 640 م (18هـ).

03ـ مظاهر الحضارة الفرعونية:

يمتد تاريخ مصر القديم من قيام الدولة المصرية القديمة 3200 ق.م. وتمكن المصريون خلال هذه المدة الطويلة من تأسيس حضارة قوية راقية، من مختلف النواحي الإجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية:

1ـ نظام الحكم:

يعتمد نظام الحكم على أسس ثلاثة:

أـ الفرعون: وهو رئيس الدولة والكاهن الأكبر، ورئيس القضاة ورئيس بيت المال، وقائد الجيش، فهو رأس المجتمع والدولة في مصر القديمة في جميع أدوار تأريخها.

ب ـ الوزير: لقد كان الملك مصدر الحكم والسلطة، ومن البديهي تعذر قيامه بإدارة شؤون الدولة جميعها، فكان يفوض في ذلك كبار موظفيه وعلى رأسهم أهم موظف في الدولة من بعد الملك وهو "وزير الملك". وإذا كان الوزير وكبار الموظفين يساعدون الملك في إدراة الدولة بتفويض منه إلا أن الشؤون والقرارات المهمة كانت تعرض أمام الملك للبتّ فيها.

ج ـ حكام الأقاليم: وعددها عشرون إقليما، أو ولاية وكان على كل منها والٍ يساعده عدة موظفين، وهو صورة مصغرة للفرعون.

2ـ الجيش:

أنشئ أول جيش نظامي في مصر حوالي سنة 3200 ق.م. وقد كان ذلك بعد توحيد الملك مينا لمصر، فقبل ذلك العام كان لكل إقليم من الأقاليم المصرية جيش خاص به يحميه. وباتحاد الأقاليم أصبح لمصر جيش موحد تحت إمرة ملك مصر. ويتكون الجيش المصري من:

أـ الجيش البري: المشاة والعربات التي تجرها الخيول، والرّماحين، والفروع الأخرى.

ب ـ الأسطول الذي كان يحمي سواحل مصر البحرية كلها، إضافة إلى نهر النيل.

3ـ الحياة الفكرية والثقافية:

أ ـ الكتابة: توجد ثلاثة أنواع متميزة من خطوط الكتابة في حضارة وادي النيل. وهي بحسب ظهورها التأريخي:

1ـ .الخط الهيروغليفي: وهو الخط المقدس الذي كان أقدم أنواع الخطوط المصرية القديمة. حيث يجده المرء في المآثر التي خلفتها تلك الحضارة. ويحسبه نوعا من الزخرفة، والزينة الصورية.

2ـ الخط الهيراطيقي: ومعنى اسم هيراطيقي "كتابة أو خط الكهنة". ومنشؤه التأريخي من تبسيط الخط الهيروغليفي واختصاره.

3ـ الخط الديموطيقي: ومعنى اسم هذا الخط "خط العوام أو الجمهور" ومنشؤه التأريخي من تبسيط الخط الهيراطيقي.

ب ـ الأدب: لقد كان للمصريين أدب هو من أقدم الآداب العالمية، وكان نتاجًا مصريًا صرفًا. نشأ ودرج في وادي النيل، ولايستبعد وجود نوع من الأدب الشعبي كالقصص، والتراتيل الدينية، والشعائر وما إلى ذلك قبل ظهور فن الكتابة في مصر. ولعل أقدم نموذج أدبي مكتوب هو من نوع التراجم الشخصية. ويرقى هذا الفن إلى عهد ملوك السلالة السادسة. واشتهرت في عصر الأهرام مجاميع الأمثال والحكم. وجاءتنا أسماء من حكماء هذا العهد أمثال "أمنحوتب"، كما جاءتنا قطع قصيرة من القصائد الشعرية.

ج ـ العمران والنحت: لقد قطع المصريون شوطا عظيما في فن النحت والعمران، ويبدو ذلك في صنع التماثيل الجميلة، والأهرامات العظمى، وكذا الصور، والرسوم الزاهية التي تزين جدران المعابد الملحقة بالأهرام. وفي جدران القبور مما وُجد في عهد المملكة القديمة.

د ـ العلوم والمعارف: نشأت العلوم والمعارف في حضارة وادي النيل منذ أن انتقل الإنسان إلى طور الحضارة. وكانت بذورها تمتد إلى ما قبل ذلك إلى الأزمان التي تعلّم فيها الإنسان الزراعة، وصناعة الفخار، واستعمال المعادن. وأخذت المعارف العلمية تنضج بالتدريج، ولما نشأت الكتابة، واتسع استعمالها في شؤون الحياة المختلفة منذ عصر الأهرام، بدأ القوم في تدوين هذه المعارف كالرياضيات، والطب، وبعض الصناعات الكيماوية، والفلك، وملاحظاتهم العامة عن الحياة.

4ـ الحياة الدينية:

مايميز الديانة في مصر القديمة هو تعدّد آلهتها وكثرتها، كما أن مراكز الآلهة كانت تتغيّر في أهميتها مع التبدلات السياسية بالنسبة إلى السلالات المختلفة، ومراكز حكمها. وكثيرا ماعمد الكهنة إلى التوفيق بين وظائف الآلهة ومطابقتها بعضها ببعض. فتندمج بهذا الشكل جملة آلهة في إله واحد يتركب اسمه من أسماء هذه الآلهة مثل "اتوم ـ رع". كما أن هؤلاء الكهنة كانوا المنظمين للمعتقدات الدينية. والمتفق عليه هو أن أصل هذه الآلهة من االقوى

الطبيعية التي كانت ذات أثر مهم في سكان وادي النيل. حيث جسّموا، وشخّصوا هذه القوى وعبدوها على هيئة آلهة، فهي كالبشر من ناحية الصفات الروحية والجسمية، ولكنها أعلى وأسمى من الإنسان، وبيدها القدرة، ومصير الكون والطبيعة. كما أنها تتصف بالخلود بوجه عام. أما عن القوى الطبيعية التي كانت أصل الآلهة المصرية فهي ثلاثة مصادر:

أ ـ قوى مستمدة من الشمس.

ب ـ قوى مستمدة من الأرض.

ج ـ قوى مستمدة من الحيوانات.

فقد عبد المصريون الإله الشمس وكان من أسمائه "رع" و"أتوم" كما تعددت الحيوانات التي اتُّخذت آلهة مجسدة في الأسد، والثر، والتمساح...إلخ. وإلى جانب ذلك فقد أدرك المصريون أثر القوى الأرضية فجسّموها، وعبدوها بصور هيئات مختلفة من ذلك الإله "أوسيريس".

5ـ الحياة الاجتماعية:

إذا استثنينا الملك ومعه أفراد الأسرة الملكة الذين كانوا فوق طبقات الشعب فبالإمكان تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات:

أ ـ الطبقة العليا المؤلفة من النبلاء والأشراف، وكبار الموظفين، والكهنة. وكان هؤلاء بيدهم مقاليد الأمور والثروة.

ب ـ الطبقة الوسطى وأهم أفرادها الصناع والعمال الأحرار والفلاحون الأحرار.

ج ـ طبقة الرقيق والعبيد.

وكانت العائلة أساس المجتمع، والغالب في الزواج في مصر القديمة الاقتصار على الزوجة الواحدة، أما تعدّد الزوجات فكان من الحالات القليلة المقصورة على العائلة المالكة، وطبقة الأشراف والنبلاء.

6ـ الحياة الإقتصادية:

لقد تطورت وازدهرت الحياة الاقتصادية في مصر القديمة مع مرور الزمن من زراعة، وصناعة، وتجارة. فقد كان للصناعة وُرَش منتشرة في كافة القطر. وكانت تستعمل المعادن، والرخام، والحجر إلى جانب الخشب. وتشمل صناعة الأدوات المنزلية، وأدوات البناء والزراعة، وصناعة السفن. كما ساعد وادي النيل وموقع مصر الجغرافي في الترويج للتجارة الداخلية، والخارجية وكانت التجارة نشيطة بصورة خاصة بين النيل ووادي الرافدين. كما تطورت الزراعة وأُدخلت عدة محاصيل وحفرت الجداول للري، حتى أصبحت المنتوجات الزراعية تكفي حاجة السكان.